الملك الظاهر بيبرس

في

شعر معاصريه

الدكتور أحمد فوزي الهيب

مقدمة:

هو السلطان الملك الظاهر[١]، ركن الدكن أبو الفتوح بيبرس[٢]، بن عبد الله البندقداري[٣]، الصالحي النجمي الأيوبي[٤]، التركي سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية[٥].

ولد عام ٦٢٠هـ[٦]، وقيل: عام ٦٢٥هـ[٧]، في صحراء القبچاق[٨]، والقبچاق قبيلة تركية عظيمة، طلبت عام ٦٤٠ هـ من ملك أولان التركماني أن يجيرها من التتار الذين هددوها، ولكنه غدر بها، فأغار عليها، وقتل وسبى الكثير منها، وكان بيبرس فيمن أسر، فبيع ونقل إلى بلاد السلطنة الأيوبية حيث اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، ثم انتقلت ملكيته إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بعدما صادر ممتلكات أيدكين عام ٦٤٤هـ[٩]، فجعله من مماليكه البحرية[١٠]، وسرعان ما ظهرت مواهبه[١١]، فترقى واستمر في ذلك إلى أن صار أستاذه أيدكين من جملة أمرائه[١٢].

كان بيبرس طموحاً جداً، وقد وفقه هذا إلى المشاركة في كثير من الأحداث الهامة والحروب التي كانت تقوم كثيراً بين المماليك أنفسهم من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جهة[١٣]، وبينهم وبين أعدائهم من جهة ثانية، حتى صار له شأن عظيم مع الملك الناصر يوسف والملك المغيث الأيوبيين، ومما يدل على ذلك أنه لما دخل إلى القاهرة قبيل موقعة عين جالوت ركب السلطان الملك المظفر قطز للقائه، وأنزله في دار الوزارة، وأقطعه قصبة قليوب[١٤]، وكان آخر هذه الأحداث الهامة التي أسهم فيها إسهاماً كبيراً قبل أن يصل إلى السلطنة هو اشتراكه مع المظفر قطز في معركة عين جالوت في ٢٥ من رمضان عام ٦٥٨ هـ، والتي انتصر فيها المماليك على التتار لأول مرة انتصاراً كاسحاً، وقتلوا قائدهم (كتبغانوين) مع كثيرين منهم، ثم تبعوهم يقتلونهم في كل موضع [١٥]. وأظهر فيها بيبرس شجاعة نادرة[١٦]، كما أرسله قطز في أثرهم يتتبعهم إلى أطراف البلاد[١٧]. وهكذا أعاد قطز الأمن إلى نصابه في جميع بلاد الشام وأقيمت الخطبة له فيها[١٨]، وصار سيد الموقف في بلاد الشام كلها من الفرات إلى مصر[١٩].

وكان السلطان المظفرقطز قد وعد بيبرس بنيابة حلب، ولكنه رفض أن يعطيه إياها ولم يف بوعده له ليضعف مركزه، وأعطاها لصاحب الموصل، فحقد عليه بيبرس[٢٠]، واتفق على قتله مع جماعة من المماليك، وسنحت لهم فرصة تحقيق ذلك قبل وصولهم مع قطز إلى القاهرة في مكان اسمه القُصَير، يقع اليوم في محافظة الشرقية بمصر[٢١].

وبعد مقتل قطز من البدهي أن تصير السلطنة إلى قاتله ركن الدين بيبرس اتباعاً للعرف السائد آنذاك، ولأنه أقوى أمراء المماليك البحرية، وصاحب فكرة القتل، بالإضافة إلى مواقفه المشرفة في محاربة المغول[٢٢]. لذلك صعد إلى قلعة الجبل لتتم مراسيم استلامه للسلطنة رسمياً، وكان ذلك في يوم الأحد ١٧ من ذي القعدة عام ٦٥٨هـ [٢٣].

وعلى الرغم من أن الظاهر بيبرس رابع سلاطين الدولة المملوكية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأولى[٢٤]، فإنه يعد المؤسس الحقيقي لها، وذلك لما فعله من أعمال عظيمة في مختلف المناحي خلال فترة سلطنته التي بلغت ما يقرب من عشرين عاماً[٢٥]، لأنه توفي يوم الخميس ٢٨ من المحرم عام ٦٧٦ هـ بدمشق [٢٦]، الأمر الذي جعله من أعظم سلاطين المماليك[٢٧].

ولقد فصّل المؤرخون القدامى والمعاصرون من عرب وأجانب الحديث عن أعماله العظيمة المتنوعة الشاملة، وملؤوا في ذلك الصفحات الكثيرة[٢٨]، الأمر الذي يدل على جدارته بالسلطنة، وعلى سبقه لسابقيه وللاحقيه من السلاطين. ويكفي أن نعلم أنه استطاع أن يقضي على أعدائه في الداخل والخارج، أو أن يخمدهم، وأنه أقام علاقات طيبة مع معظم الدول المجاورة، وتميز من جميع حكام المسلمين آنذاك بحمايته للحرمين الشريفين وللخلافة العباسية التي أحياها في القاهرة من جديد بعدما قضى عليها التتار في بغداد عام ٦٥٦ هـ، وأن حدود دولته امتدت من أقصى بلاد النوبة جنوباً إلى الفرات شمالاً، ومن برقة غرباً إلى العراق شرقاً[٢٩].

الشعر الذي قيل في الملك الظاهر بيبرس:

كنت أتمنى لو أن الشعر المتصل بالظاهر بيبرس الذي وصل إلينا قد أنصفه، أو أعطاه حقه من الذكر مثلما فعل التاريخ والمؤرخون، ولكنه لم يفعل. و الذي أرجحه أن الشعر والشعراء قد أعطوه كثيراً من هذا الحق، أو أكثر مما وصل إلينا من الشعر، بيد أن هذا الشعرلم يصل إلينا كاملاً لأسباب عدة، منها:

١ ـ ضياع مخطوطاته لأسباب كثيرة. وما أكثر المخطوطات الضائعة.

٢ ـ مخطوطات كثيرة ذات صلة بما تقدم تنتظرمن ينفض عنها الغبار، ويحققها ويطبعها وينشرها.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٣ ـ كتب كثيرة تتعلق بهذا الموضوع تحتاج إلى تحقيق وطباعة جديدة، بعد أن قدم العهد بها حتى غدت نادرة جداً، لا يستطيع الباحثون أن يصلوا إليها إلا بصعوبات بالغة، فضلاً عن أنها قد طبعت منذ زمن طويل طبعات غير دقيقة أو علمية.

٤ ـ كتب طبعت محققة، ولكن بأعداد قليلة جداً سرعان ما تلاشت واختبأت في بعض المكتبات العامة أو الخاصة في البلاد العربية والأجنبية، الأمر الذي حال بينها وبين الباحثين، وجعل وجودها كعدمها.

٥ ـ ضياع كثير من الشعر بفعل الشعراء أنفسهم أو مؤلفي الكتب، وبخاصة أصحاب الطبقات والمؤرخون وغيرهم الذين أكثروا من حذف قصائد المديح أو أبياته بعامة عند حديثهم عن أصحابها، وهذه ظاهرة تحتاج إلى دراسة مستقلة في غير هذا الموضع.

ولا شك إضافة إلى ذلك في أن لعجمة الملك الظاهر بيبرس، ولضعف مستواه الثقافي والأدبي، ولغرقه حتى أذنيه في الأعمال العسكرية والسياسية والإدارية والاقتصادية وغيرها دوراً في ذلك.

ولكننا ينبغي ألا نبالغ في تضخيم هذا الدور، وذلك لأن الظاهر بيبرس وأكثر سلاطين المماليك قد تعربوا، واتخذوا العربية لساناً رسمياً لهم، فضلاً عن أنهم أبقوها لغة رسمية لدولتهم ودواوينها ومراسلاتها، وقلدوا أسلافهم الأيوبيين في استماعهم للشعراء، واتخاذ شعرهم وسيلة إعلامية، تقف بجانبهم، ليفيدوا مما لديها من إمكانات إيجابية، وبخاصة إنهم يعيشون في بلاد عربية، ويحكمون شعباً عربياً باسم دين، لغته ولغة قرآنه الكريم وحديثه النبوي الشريف العربية، الأمر الذي يجعلهم يختلفون إلى حد كبير عن السلاطين العثمانيين الذين وإن شابهوهم في بعض الجوانب فإنهم يختلفون عنهم في عدم اتخاذهم العربية لغة رسمية لدولتهم، كما لم يتخذوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إحدى المدن العربية عاصمة لدولتهم، إضافة إلى غير ذلك من الاختلافات. لذلك يجب أن نميز بين موقفيهما من اللغة العربية وآدابها.

وفي هذا البحث لن أقترب مما قاله المؤرخون في رسمهم لصورة الملك الظاهر بيبرس وأعماله إلا بالقدر الذي يضيء الطريق أمام فهم ما قاله الشعراء عنه وعنها. وسأكتفي بما وصل إلينا، أو بما استطعت الوصول إليه من شعر تحدث عنه وعن انتصاراته وأعماله وغير ذلك، وقد بلغ مئة وثمانين بيتاً تقريباً، جمعته من المصادر المشار إليها. ورجوت من وراء ذلك الوصول إلى صورة الملك الظاهر بيبرس في شعر عصره، أو كيف كان الشعراء يرونه؟ وكيف استطاعوا التعبير عن هذه الرؤية؟ ولعل هذا يؤكد أقوال المؤرخين، أو يضفي عليها زيادة ما في هذا الجانب أو ذاك. وكلا الأمرين لا يخلو ـ كما أعتقد ـ من فائدة ما للأدب العربي من جهة، وللتاريخ من جهة ثانية.

الملك الظاهر بيبرس في شعر معاصريه:

من البديهي أن يكون تركيز الشعراء في أشعارهم على الجانب العسكري، وما يتصل به من صفات وأعمال لدى الملك الظاهر بيبرس أكثر من تركيزهم على غيره من الجوانب، وذلك لأن هذا الجانب وما يتعلق به كان أكبر وأوضح من غيره من الجوانب في شخصية عظيمة ذات جوانب متعددة ثرية، ويتضح هذا بجلاء إذا رجعنا إلى أي مصدر أو مرجع يتحدث عن ذلك.

ولعل أكثر معارك الظاهر بيبرس العسكرية بعد سلطنته إثارة لشاعرية الشعراء، هي المعركة التي حدثت عام ٦٧١هـ بينه وبين التتار على نهر الفرات الذي خاضه مع جنده بخيولهم وأسلحتهم ودروعهم نحو التتار، وقتلوا وأسروا منهم الكثير، ولم ينج منهم إلا النزر اليسير، الأمر الذي كان له أطيب الأثر في نفوس المسلمين الذين لم تكسر عندهم بعد كسراً تاماً أسطورة التتار الذين لا يغلبون على الرغم من الانتصار في معركة عين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جالوت، لأنها حدثت بعدها بمدة قليلة.

ومن الشعراء الذين وصلت إلينا أشعارهم في هذه المعركة شهاب الدين محمود[٣٠]، الذي قال قصيدة رائية، وصفها ابن تغري بردي بأنها طنانة[٣١]، وليتها وصلت إلينا كاملة.

بدأها الشهاب محمود بقوله مخاطباً الظاهر بيبرس[٣٢]:

سِرْ حيثُ شئتَ لكَ المهيمنُ جارُ واحكمْ فَطَوْعُ مرادِكَ الأقدارُ
لمْ يبقَ للدينِ الذي أظهرتَهُ يا ركنَهُ عندَ الأعادي ثارُ

وهذه البداية تظهر الروح الدينية التي كانت سائدة قوية في ذلك العصر، ولا غرو في ذلك، فالشاعر لا تربطه بالممدوح ـ شأنه في ذلك شأن الأمة العربية ـ إلا رابطة الدين الذي كان يحكم باسمه الملوك شعوبهم آنذاك، والذي كانت الحروب تشتعل باسمه حقاً أو باطلاً. كما تبين هذه المقدمة أيضاً صورة بيبرس في عين الشاعر، وهي صورة تتميز بالسطوة والقوة ونفاذ الأحكام، ويبدو هذا عندما جعل الشاعر الأقدار طوع أمر بيبرس تأتمر بأمره، ولا تخالف له أمراً، وهذه المبالغة التي قد يعترض عليها بعضنا كانت شائعة في ذلك العصر على الرغم من تضاؤل حدتها عما كانت عليه من قبل، وبخاصة لدى شعراء الدولة الفاطمية، ولا سيما ابن هانئ. ولا شك في اختلاف خلفيتها عند شعراء الفاطميين الذين كانوا يعبرون بها عن حقيقة اعتقادهم من خلال مذهبهم الإسماعيلي، وبالتالي فهي عندهم أقرب إلى الحقيقة ـ إن لم نقل هي الحقيقة ذاتها في نظرهم ـ منها إلى المبالغة، أقول لا شك في اختلاف خلفيتها لدى الشعراء الفاطميين عن خلفيتها لدى شعراء المماليك الذين أرادوا بها التفخيم والتعبير عن إعجابهم الكبير بما يرون.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبعد ذلك انتقل الشاعر إلى وصف المعركة، فقال(٣٣):

لَّما تراقصتِ الرؤوسُ وحُرِّكَتْ مِنْ مطربات قسيِّكَ الأوتارُ
خضْتَ الفراتَ بسابحٍ أقصى مُنَى هُوجِ الصَبَا مِنْ نعلِهِ آثارُ
حملَتْكَ أمواجُ الفراتِ ومَنْ رأى بحراً سواكَ تُقلُّهُ الأنهارُ
وتقطَّعَتْ فرقاً ولمْ يكُ طَوْدَهَا إذْ ذاكَ إلاَّ جيشُكَ الجرارُ
رشَّتْ دماؤهمُ الصعيدَ فلمْ يطرْ منهمْ على الجيشِ السعيدِ غبارُ

رسم الشاعر الشهاب محمود صورة للظاهر بيبرس تتميز بالشجاعة والفروسية، فعندما اشتد أوار المعركة اندفع في نهر الفرات الغزير العميق بحصانه الأصيل السريع الذي لا تستطيع الريح الشرقية الهائجة أن تشق له غبارا. ولم ينس الشاعر هنا صفة الكرم التي نجدها في تشبيهه بالبحر، وهي صفة تميز بها بيبرس، أتى بها الشاعر مغتنماً ذكر النهر وخوضَ بيبرس فيه، وصاغها بصيغة الاستفهام الإنكاري الذي زادها قوة وتأكيداً وجمالاً (ومن رأى بحراً سواك تقله الأنهار). وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن جيش الظاهر الذي قطع أمواج الفرات فرقاً، وشبهه بالطود، ووصفه بأنه جرار. ولكل ما تقدم إيحاؤه الجمالي والبلاغي. ثم تحدث عن دماء قتلى التتار وجراحهم الكثيرة التي بللت أرض المعركة فحالت دون تطاير الغبار.

وبعد ذلك انتقل الشهاب محمود إلى الحديث عن نتائج هذه المعركة، فقال(٣٤):

شكرتْ مساعيَكَ المعاقلُ والورى والترِبُ والآسادُ والأطيارُ
هذي منعْتَ وهؤلاءِ حَمَيْتَهم وسقَيْتَ تلكَ وعمَّ ذا الأيسارُ

إنه جعل القلاع والناس والأرض والوحوش تشترك معاً في شكر الظاهر بيبرس، لأن فضله عمها جميعاً، وقد وضح كيفية ذلك في قوله:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذي منعت وهؤلاء حَمَيْتَهم وسقيت تلك وعم ذا الأيسارُ

ثم ختم أبياته التي وصلت إلينا بقوله(٣٥):

فلأملأنَّ الدهرفيكَ مدائحا تبقى ـ بقيتَ ـ وتذهبُ الأعصارُ

إنه أخذ عهداً على نفسه أن يمدح الظاهر بيبرس مدائح كثيرة خالدة على مدى الأيام والعصور، ولم ينس أن يدعو له بالبقاء في أثناء ذلك، وتميز هذا الدعاء بالرشاقة والإيجاز والجمال.

وفي هذه الوقعة أيضاً قال الحكيم الموفق عبد الله بن عمر الأنصاري(٣٦):

الملكُ الظاهرُ سلطانُنَا نفديهِ بالأموالِ والأهلِ

اقتحمَ الماءَ ليطفي بهِ حرارةَ القلبِ منَ المغلِ

لقد عبر عن حب الناس الكبير للظاهر بيبرس، الأمر الذي جعلهم يفدونه بأموالهم وأهليهم، كما يبدو في قوله (سلطاننا) فخر الشاعر به وبما حققه، ثم وصف اقتحامه البطولي لمياه الفرات الغزيرة وراء التتار، وعلل ذلك تعليلاً له دلالته النفسية التي تعبر عما تغتلي به القلوب من كره وحقد تجاه المغول، لما فعلوه معهم من وحشية تسمو عليها الوحوش الكاسرة.

ووصف هذا الانتصار أيضاً محيي الدين بن عبد الظاهر قائلاً(٣٧):

تجمعَ جيشُ الشركِ منْ كل فرقةٍ وظنوا بأنَّا لا نُطيقُ لهم غَلْبَا

وجاؤوا إلى شاطي الفراتِ وما دَرَوا بأنَّ جيادَ الخيلِ تقطعُهَا وَثْبَا

وجاءت جنودُ اللهِ في العُدَدِ التي تميسُ لها الأبطالُ يومَ الوغى عُجْبَا

فَعُمْنَا بسدٍ من حديدٍ سباحةً إليهمْ فما استطاعَ العدوُّ له نَقْبَا

وتبدو الروح الدينية واضحة في وصفه لجيش المغول بأنه جيش

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشرك، وفي نعته لجند الظاهر بيبرس بأنهم جند الله، كما تبدو أيضاً في ذلك الاقتباس بالبيت الأخير (فما اسطاع العدو له نقبا)[٣٨]. وتحدث كذلك عن ظن المغول الخاطئ بأن نهر الفرات سيحميهم، ولم يدروا أن خيل المسلمين لا يعجزها ذلك، كما تحدث عن عدة الجيش بعامة لأنها جزء هام من قوته. واللافت للنظر حديث الشاعر في البيت الأخير بأسلوب جمع المتكلمين (فعمنا)، مع أن المصادر لم تشر إلى اشتراكه في هذه المعركة، الأمر الدال على أنه كان يرى أن الظاهر بيبرس وجيشه يقاتلون باسمه واسم الأمة كلها، وأن هذه المعركة معركته، والانتصار انتصاره.

ولأنتقل بعد ذلك إلى شعراء من نوع آخر، وهم شعراء شهدوا هذه المعركة، ومنهم الشيخ ناصر الدين حسن بن النقيب الكناني[٣٩] ، الذي قال فيها [٤٠]:

ولّما ترامينا الفراتَ بخيلِنَا سَكَرْنَاهُ منَّا بالقُوى والقوائمِ
فأوقفتِ التيارَ عنْ جريانِهِ إلى حيثُ عُدْنا بالغِنَى والغنائمِ

وصف الشاعر هنا خيل المسلمين قد حبست مياه الفرات عن الجريان بقوتها وبقوائمها الكثيرة التي تحولت إلى سد منيع لا تستطيع المياه منه نفاذاً، لذلك سكنت وتوقفت إلى أن عاد الجيش بالغنائم الوفيرة منتصراً، وعلى الرغم من أنه من البدهي أن يتحدث الشاعر بأسلوب المتكلمين لأنه كان مشتركاً في المعركة، فإن لهذا أيضاً دلالته التي أشرنا إليها قبل قليل.

ومن الشعراء الذين شهدوا هذه المعركة أيضاً وخاضوا غمارها بدر الدين يوسف المهمندار[٤١] ، وكان شيخاً متجنداً[٤٢] ، الأمر الذي جعله شاهداً عليها، وأكسب شعره الواقعية والثقة، ونجده قد وصف غبار المعركة الذي كاد يمنع الرؤية لولا ضياء أسنة الرماح وظبات السيوف، كما وصف أيضاً جبن التتار وسوء تقديرهم للموقف وخيبتهم، ثم تحدث عن جيش المسلمين وعدته وقطعه للفرات وسرعته في الوصول إلى التتار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المهزومين وقتله لهم[٤٣]:

لو عاينَتْ عيناكَ يومَ نزالِنَا ... والخيلُ تطفحُ في العجاجِ الأكدَرِ
وسنا الأسنةِ والضياءُ منَ الظُبَى ... كَشَفَا لأعيننا قتامَ العثيَرِ
وقد اطلَخَمَّ الأمرُ واحتدمَ الوغى ... وَوَهَى الجبانُ وساءَ ظنُّ المجتري
لرأيْت سداً مِنْ حديدٍ ما يُرى ... فوقَ الفراتِ وفوقَهُ نارٌ تَرِي
ورأيتَ سيلَ الخيلِ قد بلغَ الزُبى ... ومنَ الفوارسِ أبحراً في أبحرِ
طَفَرَتْ وقدْ منعَ الفوارسُ مدَّها ... تجري ولولا خيلُنَا لمْ تَطْفِرِ
حتى سبقْنَا أسهماً طاشَتْ لنا ... منهمْ إلينا بالخيولِ الضُمَّرِ
لم يفتحوا للرمْيِ منهمْ أعيناً ... حتى كُحِلْنَ بكلِّ لدنٍ أسمرِ
فتسابقوا هرباً ولكنْ رَدَّهُمْ ... دونَ الهزيمةِ رمحُ كلِّ غَضَنْفَرِ

ثم تحدث الشاعر بعد ذلك عن نهاية المعركة وكيف أن القتلى قد ملؤوا الفضاء الواسع، وسدوا الطرق، فقال[٤٤]:

ملؤوا الفضاءَ فعنْ قليلٍ لمْ ندعْ ... فوقَ البسيطةِ منهمُ مِنْ مُخْبِرِ
سدَّتْ علينا طُرْقَنَا قتلاهمُ ... حتى جَنَحْنَا للمكانِ الأوعرِ

كما وصف أيضاً خيل المسلمين وكيف تعثرت برؤوس المغول تعثراً منعها من أن تنطلق بأقصى سرعتها، وخاضت في بحور دمائهم التي جرت كالأنهار، فتلطخت حتى غدا أشهبُها أشقرَ[٤٥]:

ما كانَ أجرى خيلَنَا في إثرِهمْ ... لَوْ أنَّها برؤوسهمْ لَمْ تعثُرِ
مِنْ كلِّ أشهبَ خاضَ في بحرِ الدما ... حتى بَدَا لعيونِنَا كالأشقرِ
وَجَرَتْ دماؤُهمُ على وجْهِ الثرَى ... حتى جَرَتْ منها مجاري الأنْهُرِ

كما تحدث أيضاً عن صرخات جند المسلمين التي فلقت بقوتها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الصخور[٤٦] :

كمْ قَدْ فلقنا صخرةً مِنْ صرخةٍ ولكمْ ملأنا مَحْجِراً مِنْ مَحْجَرِ

وبعد ذلك رسم صورة جميلة متميزة للظاهر بيبرس، وهو يتبع المغول بسيفه البتار الذي علته دماء قتلاهم وقد التصق بها الغبار، فغدا وكأنه في غمده لم يسل، ولكن أي غمد هذا[٤٧]!!

والظاهرُ السلطانُ في آثارِهِمْ يذْري الرؤوسَ بكلِّ عَضْبٍ أبترِ

ذهبَ العجاجُ معَ النجيعِ بصقلِهِ فكأنَّهُ في غمدِهِ لَمْ يُشْهَرِ

وختم قصيدته هذه مخاطباً غيره من الشعراء الذين وصفوا المعركة سماعاً من غير أن يحضروها مفتخراً ببلائه وبشعره، فما راءٍ كمن سمع[٤٨]:

إنْ شئْتَ تمدحهُ فقفْ بإزائِهِ مثلي غداةَ الروعِ وانظمْ وانثرِ

وبعد، فلقد تساءلتُ عن سبب إلحاح الشعراء على وصف هذه المعركة، وتركيزهم عليها خلافاً لغيرها من المعارك، ثم رجحت أن هذا الإلحاح ربما كان بسبب الوقت الذي حدثت فيه، فقد حدثت في ١٩ من جمادى الأولى عام ٦٧١ هـ تقريباً، وذلك لأن الظاهر قد رحل عن منبج في ١٨ من جمادى الأولى عام ٦٧١ هـ إلى الفرات[٤٩]، وهذا التاريخ يوافق ١٩ من كانون الأول (يناير) عام ١٢٧٢م[٥٠]، وهو وقت صعب لأنه يقع في فصل الشتاء الذي يتميز ببرودته الشديدة في هذا المكان من السلطنة المملوكية، الواقع في شمالي بلاد الشام، كما تكثر فيه مياه نهر الفرات، ويرتفع مستواها بسبب الأمطار الغزيرة التي تسقط على ينابيعه وعلى مايجاوره، الأمران اللذان يجعلان خوض الفرات عملية ليست عادية، وإنما عملية متميزة فريدة تحتاج إلى جرأة وشجاعة واقتدار.

ومن معارك الظاهر بيبرس التي نظم فيها الشعراء قصائدهم، تلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعركة التي حدثت بالقرب من نهر جيحان في بلاد الروم عام ٦٧٥ هـ، وتحالف فيها ضده التتار والروم والكرج وجيش البَرْوَاناه، وحمل فيها بنفسه بصدق[٥١]، وكان «يكر كالأسد الضاري ويقتحم الأهوال بنفسه، ويشجع أصحابه، ويُطيِّب لهم الموت في الجهاد إلى أن أنزل الله تعالى نصره عليه، وانكسر التتار أقبح كسرة، وقتلوا، وأسروا، وفر من نجا منهم، فاعتصموا بالجبال، فقصدتهم العساكر الإسلامية»[٥٢]. ومن القصائد التي وصلت إلينا في وصفها قصيدة الشهاب محمود التي استهلها بقوله[٥٣]:

كذا[٥٤] فلتكنْ في اللهِ تمضى العزائمُ وإلا فلا تجفو الجفونَ الصوارمُ[٥٥]
عزائمُ حاذَتْها الرياحُ فأصبحتْ مخلَّفَةً تبكي عليها الغمائمُ

والروح الدينية واضحة جلية تبدو في البيت الأول، وتحدث بعد ذلك عن ضخامة جيش الظاهر بيبرس، وسرعة تحركه اللتين تجعلان الأرض الواسعة الأرجاء ضيقة كالخاتم، الأمر الذي يدل على مدى اهتمام الظاهر بجيشه، وهذا جانب هام من جوانب شخصيته[٥٦].

بجيشٍ تظلُّ الأرضُ منهُ كأنَّها على سَعَةِ الأرجاءِ في الضيق خاتَمُ
كتائبُ كالبحرِ الخِضَمِّ جيادُهَا إذا ماتهادَتْ موجُهُ المتلاطِمُ

وانتقل بعدذلك إلى الملك الظاهر بيبرس ، وصوره وقد أحاطت به هذه الكتائب،وجعل النصر عبداً يخدمه، والأقاليم تحن إليه تتمنى أن يفتحها[٥٧]:

تحيطُ بمنصورِ اللواءِ مُظَفَّرٍ لهُ النصرُ والتأييدُ عبدٌ وخادمُ
مليكٌ لأبكارِ الأقاليمِ نحوَهُ حنينٌ، كذا تَهْوى الكرامَ الكرائمُ

وتحدث أيضاً عن كثرة القلاع المنيعة التي افتتحها سلماً وحرباً على الرغم من حصانتها التي لم تحل بينهما وبين مصيرها المحتوم[٥٧].

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فكمَ وطئَتْ طوعاً وكرهاً جيادُهُ معاقلَ قُرطاها السُها والنعائمُ

كما ألح على الجانب الديني، فصور الدين يلوذ بركن الظاهر بيبرس، وأفاد في ذلك من لقبه. وهو ركن الدين، كما أشار إلى أن للدين في كل ساعة من الظاهر بيبرس بشارة تسر الهدى، بينما تكون في الوقت نفسه للكفر مأتماً وللشيطان بكاء وحزناً(٥٨).

مليكٌ يلوذُ الدينُ مِنْ عزماتهِ بركنٍ لهُ الفتحُ المبينُ دعائمُ
مليكٌ لهُ بالدينِ في كل ساعةٍ بشائرُ للكفارِ منها مآتمُ
جلا حينَ أقذى ناظرُ الكفرِ للهدى ثغوراً بكى الشيطانُ وَهْيَ بواسمُ

وإضافة إلى ذلك تحدث عن تصميمه الذي لا يعرف إلا الوصول إلى هدفه مهما كلفه ذلك، وصور ذلك تصويراً جميلاً بقوله(٥٩):

إذا رام شيئاً لم يعقْهُ لِبُعْدها وشقتِها عنهُ الإكَامُ الطواسمُ
فلوْ نازعَ النسرين أمراً لنالهُ وذا واقعٌ عجزاً وذا بعدُ حائمُ

ثم انتقل إلى وصف جيش الظاهر بيبرس وقد سالت الأرض بمواكبه المنتصرة، وأحاط الأعداء برماحه التي صارت سوراً منيعاً صلباً(٦٠):

وسالتْ عليهمْ أرضُهُمْ بمواكبٍ لها النصرُ طوعٌ والزمانُ مسالمُ
أدارت بهمْ سوراً منيعاً مُشَرَّفاً بِسُمْرِ العوالي مالَهُ الدهرَ هادمُ

وتحدث أيضاً عن أصل هذا الجيش التركي، وصور أفراده وكيف يجمعون بين صفة الجمال في السلم وصفة الشجاعة في الحرب(٦١):

مِن التركِ أمَّا في المغاني فإنَّهُمْ شموسٌ وأما في الوغى فضراغمُ

ومع ذلك فإن جيشهم إنما يظهر على أعدائهم بفضل قائدهم الملك الظاهر بيبرس(٦٢):

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

غدا ظاهراً بالظاهرِ النصرُ فيهمُ تبيدُ الليالي والعدى وهوَ دائمُ

وأخيراً صور ملوك الأعداء وأمراءهم في نهاية هذه المعركة أذلة قد غدت أموالهم غنائم للمسلمين(٦٣):

فكم حاكمٍ منهمْ على ألفِ دارعٍ غدا حاسراً والرمحُ في فيهِ حاكمُ
وكم مَلِكٍ منهمْ رأى وَهْوَ مُوثَقٌ خزائنَ مايحويهِ وَهْيَ غنائمُ

وختم قصيدته هذه بتهنئة الظاهر بيبرس ووصفه بأنه ملك الإسلام الذي غدت أيام نصره على أعدائه مواسم وأعياداً للمسلمين، والذي بذل روحه الغالية رخيصة في سبيل الله(٦٤):

فيامَلكَ الإسلامِ يامَنْ بنصره على الكفرِ أيامُ الزمانِ مواسمُ
تهنَّ بفتحٍ سار في الأرض ذكرُهُ سُرى الغيثِ تَحْدُوهُ الصَّبَا والنعائمُ
بذلْتَ لهُ في اللهِ نفساً نفيسةً فوافاك لا يثنيهِ عنكَ اللوائمُ

ثم تحدث عن نتائج هذه المعركة، وكيف أدت إلى استسلام الحصون التي كانت عاصية، والتي حلم بفتحها ملوك الأرض ولكنهم لم يستطيعوا إليها سبيلاً، وختم أبيات قصيدته هذه بدعائه لله تعالى أن تستمر انتصارات بيبرس على الكفر دائماً(٦٥):

ولمَّا هزمْتَ القومَ ألْقَتْ زمامَهَا إليكَ الحصونُ العاصياتُ العواصمُ
ممالكُ حاطَتْهَا الرماحُ فكم سَرَتْ على رجلٍ فيها الرياحُ النواسمُ
تبيتُ ملوكُ الأرضِ وهْيَ مُنَاهُمُ وليسَ بها منهمْ معَ الشوقِ حالمُ
ولولاكَ ماأومى إلى برقِ ثغرِها لعزةِ مثواهُ منَ الشامِ شائمُ
أقمتَ لها بالخيلِ سوراً كأنَّها أساورُ أضحتْ وهْيَ فيها معاصمُ
فلازلتَ منصورَ اللواءِ مُؤَيَّداً على الكفرِ ماناحَتْ وأبكَتْ حمائمُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتحدث شاعر آخر عن أصل الظاهر بيبرس التركي، وجعله أسد الترك وركنهم الذي أخذ الثأر من التتار بعد الخوف منهم، فقال(٦٦):

فيا أسدَ الترْكِ ويا ركْنَهُمْ ويا آخذَ الثارِ بعدَ المخافهْ

وذكر هذا الشاعر أيضاً بعض أعماله العظيمة المتميزة مثل انتصاره على الأعداء، وجبره للمحتاجين، وقطعه للفرات، ثم إحيائه للخلافة العباسية(٦٧) :

كسرتَ الطغاةَ جبرْتَ العُفاةَ قطعْتَ الفراتَ وصلْتَ الخِلافَهْ

وإضافة إلى ذلك تحدث الشعراء عن سرعة انتقاله من بلد إلى بلد في سلطنته الواسعة(٦٨)، الأمر الذي كان له أثره في تثبيت أركانها وفي القضاء على الأعداء، وقد وصف ذلك أحد الشعراء بقوله(٦٩):

يوماً بمصرَ ويوماً بالشآمِ ويو ماً بالفراتِ ويوماً في قُرى حلبِ

ووصف أيضاً اتساع سلطنته وحسن تدبيره لها، فقال(٧٠) :

تدبِّر الملكَ مِنْ مصرٍ إلى يَمَنٍ إلى العراقِ وأرضِ الروم والنُوَبِ

ولعل هذا هو الذي جعل محيي الدين بن عبد الظاهر يخاطبه بأنه ملك الأرض، وذلك عندما هنأه بفتحه لعكار سنة ٦٦٩ الذي كان له عزاء عن استعصاء عكا عليه(٧١):

يا مليكَ الأرضِ بُشرا كَ فقدْ نلتَ الإرادهْ
إن عكّار يقيناً هوَ عكّا وزيادهْ

وجعل الشريف محمد بن رضوان الناسخ ينعته بأنه مالك الدنيا(٧٢):

ما الظاهرُ السلطانُ إلاّ مالكُ الـ ـدنيا بذاكَ لنا الملاحمُ تُخْبِرُ

وتحدث الشعراء أيضاً عن حسن معاملة الظاهر بيبرس لأمرائه وجنده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكثرة عطائه لهم، الأمر الذي كان يدفعهم لبذل أقصى ما يستطيعون في جهاد الأعداء، والأبيات التالية تصور تمليكه الأراضي المفتوحة للأمراء المجاهدين بعد فتح قيسارية عام ٦٦٣(٧٣) :

فتىً جعلَ البلادَ مِنَ العطايا فأعطى المدنَ واحتقرَ الضياعا
سمعنا بالكرامِ وقدْ أرانا عياناً ضعفَ ما فعلوا سماعا
إذا فعلَ الكرامُ على قياسٍ جميلاً كانَ ما فعلَ ابتداعا

وأما بالنسبة إلى الرعية فلقد أبطل الظاهر بيبرس ما كان قد أحدثه الملك المظفر قطز من ضرائب، وأقام العدل بينهم، فضج الناس له بالدعاء، ومالت إليه قلوبهم، فقال أحد الشعراء في ذلك(٧٤) :

لمْ يبقَ للجورِ في أيامكُمْ أثرُ إلا الذي في عيونِ الغِيدِ مِنْ حَوَرِ

وإضافة إلى ذلك كان الظاهر بيبرس شديداً في قضائه على المنكرات التي كانت منتشرة في بداية سلطنته كالخمر والحشيش وغيرهما(٧٥)، فجعل الحد على ذلك القتل، ونفذ ذلك عندما أمسك ابن الكازروني وهو سكران، فأمر بصلبه وفي حلقه جرة خمر، وجعله عبرة لغيره، ووصف ذلك الحكيم شمس الدين بن دانيال(٧٦)، في قوله(٧٧) .

لقدْ كانَ حدُّ السكرِ منْ قبلِ صلبِهِ خفيفَ الأذى إذْ كانَ في شرعِنا جَلْدَا
فلما بدا المصلوبُ قلتُ لصاحبي ألا تُبْ فإنَّ الحدَّ قَد جاوزَ الحدَّا

ولا تخفى التورية في الشطر الأخير.

وتحدث عن ذلك أيضاً أبو الحسين الجزار(٧٨)، في قوله(٧٩):

قدْ عُطِّلَ الكُوبُ مِنْ حبابِهْ وأُخْلِيَ الثغرُ مِنْ رضابِهْ
وأصبحَ الشيخُ وَهْوَ يبكي على الذي فاتَ مِنْ شبابِهْ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وصور ابن دانيال مدى جدية تطبيق قرار منع الخمر والحشيش وهيبة الظاهر التي تجاوزت الإنس الى الجن تصويراً طريفاً في قوله(٨٠):

نهى السلطانُ عنْ شُرْبِ الحُمَيَّا وصيَّرَ حدَّهَا حدَّ اليماني
فما جسرَتْ ملوكُ الجنِّ خوفاً لأجلِ الخمرِ تدخلُ في القناني

وينبغي ألا نفهم من هذا اعتراض هؤلاء الشعراء على ذلك، وإنما الذي أرجحه أنهم قالوا ذلك تدفعهم روح الدعابة، والذي يرجح ذلك قول ناصر الدين بن النقيب(٨١)، الذي صور أثر ذلك على إبليس، وكيف قرر مغادرة السلطنة المملوكية إلى غيرها(٨٢):

منعَ الظاهرُ الحشيش معَ الخمـ ـرِ فولَّى إبليسُ مِنْ مصرَ يسعى
قال مالي وللمقامِ بأرضٍ لمْ أُمَتَّعْ فيها بماءٍ ومرعى

وقول ابن المُنَيِّر(٨٣)، في ذلك أيضاً مخاطباً الظاهر بيبرس(٨٤):

ليسَ لإبليسَ عندنا أرَبٌ غيرُ بلادِ الأميرِ مأواهُ
حَرَمْتَهُ الخمرَ والحشيشَ معاً حَرَمْتَهُ ماءَهُ ومرعاهُ

ويرجح ذلك أيضاً تناول ابن دانيال لهذا الموضوع بأسلوب قصصي فيه روح الدعابة والإضحاك واضحة بجلاء(٨٥)، وختم قصته بقصيدة صور فيها إبليس قد مات، وخلا منه الربع، فاستقامت الأمور، وصلحت، وأريقت الخمر، وكسرت أوانيها، كما تحدث عن الخلعاء ومواقفهم من ذلك فقال(٨٦):

ماتَ ياقومُ شيخُنا إبليسُ وخلا منه ربعُهُ المأنوسُ
هو لو لم يكن كما قلتُ ميْتاً لمْ يُغَيَّرْ لأمرِهِ ناموسُ
أينَ عيناهُ تنظرُ الخمرَ إذْ عُطِّـ ـلَ منها الراووقُ والمحريسُ
ومواعينُها تُكَسَّرُ والخمَّـ ـارِ مِنْ بعدِ كسرِهَا محبوسُ
وذوو القصفِ ذاهلونَ وقد كا دَتْ على سيلِها تسيلُ النفوسُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كمْ خليعٍ يقولُ ذا اليومُ يومٌ مثل ما قيلَ قَمْطَرِيرٌ عبوسُ
وفتى قائلٍ لقدْ هانَ عندي بعدَ هذا في شُرْبها التجريسُ

وتحدث ابن دانيال أيضاً في هذه القصيدة عن قلع الحشيش وحرقه، فقال(٨٧):

أينَ عيناهُ والحشائشُ يُحْرَقْ نَ بنارٍ تُراعُ منها المجوسُ
قَلَعُوها منَ البساتينِ إذْ ذا كَ صغاراً خضراءَ وهْيَ عروسُ

كما تكلم عما آلت إليه أمور البغاء وأهله بالطريقة نفسها(٨٨)، وطلب من هؤلاء جميعاً الرحيل من هذه البلاد، لأنها بلاد عفاف، فلا مقام لهم فيها بقوله(٨٩):

ارحلوا هذهِ بلادُ عفافٍ وسعودُ الخلاعِ فيها نحوسُ

ولم يجد أحد الشعراء الذين أضرت بهم هذه الإصلاحات إلا أن يستنجد بإبليس، ويستنهضه، ويطلب منه أن يحتال ليعيد الخمر والمعاصي إلى ما كانت عليه(٩٠):

الخمرُ يا إبليسُ إنْ لم تقمْ وَتُوسِعُ الحيلةَ في ردِّهَا
لأَنفَقَتْ سوقُ المعاصي ولا أفلحْتَ يا إبليسُ مِنْ بعدِهَا

وإضافة إلى ما سبق ذكره من إصلاحات اجتماعية أخلاقية عُني الظاهر بيبرس بالحياة الفكرية والثقافية والدينية، فبنى المدارس في نواحي بلاد سلطنته، ومنها المدرسة الظاهرية بالقاهرة التي لم يأذن بالشروع في بنائها إلا بعد أن رتب لها وقفها الذي يضمن لها الإيراداتِ المالية اللازمة لاستمرارها، كما أمر ألا يستعمل فيها أحد بغير أجرة، ولا ينقص من أجرته شيء. ثم افتتحها عام ٦٦٢هـ بعدما تم بناؤها، وزودت بخزانة كتب تشتمل على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أمهات الكتب في سائر العلوم وبنى بجوارها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، وأجرى لهم الجرايات والكسوة(٩١)، وكان افتتاحها باحتفال رسمي حضره العلماء والقراء والمحدّثون والمدرسون والشعراء، وقررت فيه الدروس، وأقيمت المناظرات وأنشدت القصائد، ثم مُدَّتْ الأسمطة، فأكل الحاضرون ولقد كان أبو الحسين الجزار حاضراً ذلك، فوصفه قائلاً(٩٢):

ألا هكذا يبني المدارسَ مَنْ بنى ... وَمَنْ يتغالى في الثوابِ وفي الثنا
لقدْ ظهرَتْ للظاهرِ الملْكِ همَّةٌ ... بها اليومَ في الدارينِ قدْ بلغَ المُنى
تجمَّعَ فيها كلُّ حُسْنٍ مفرَّقٍ ... فراقَتْ قلوباً للأنامِ وأعْيُنَا

وكذلك حضر السراج الوراق هذا الاحتفال فوصفه، وتحدث عن حب الظاهر بيبرس للعلم والعلماء، وقارن هذه المدرسة بالمدرسة النظامية الشهيرة وفضلها عليها نظاماً، كما فضل الملك الظاهر على غيره من الملوك، وذكر حسنها وجمال محرابها وكرم بيبرس، فقال(٩٣):

مليكٌ لهُ في العلمِ حبٌّ وأهلِهِ ... فللهِ حبٌّ ليسَ فيهِ مَلامُ
فشيَّدَها للعلمِ مدرسةً غدا ... عراقٌ إليها شَيِّقٌ وشآمُ
ولا تذكرنْ يوماً نظاميّةً لها ... فليس يُضاهي ذا النظامَ نظامُ
ولا تذكرنْ مَلْكاً فبيبرسُ مالكٌ ... وكلُّ مليكٍ في يديهِ غلامُ
ولَّما بناهَا زعزعَتْ كلَّ بيعةٍ ... متى لاحَ صبحٌ ما استقرَّ ظلامُ
وقدْ برزَتْ كالروضِ في الحسنِ أنبأتْ ... بأنَّ يديْهِ في النوالِ غَمَامُ
ألَمْ ترَ محراباً كأنَّ أزاهراً ... تفتَّحَ عنهنَّ الغداةَ كمامُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتحدث في هذه المناسبة أيضاً جمال الدين يوسف بن الخشاب، فنوَّه بفضل الظاهر بيبرس، وبتفوقه على الملوك والخلفاء، وبفضل أمرائه وجنوده، ثم تحدث عن المدرسة الظاهرية وعلمائها، ودعا له بالبقاء والخلود وعلى حاسديه بالفناء(٩٤):

قصد الملوكُ حماكَ والخلفاءُ ... فافخرْ فإنَّ محَلَّكَ الجوزاءُ
أنتَ الذي أُمراؤُهُ بينَ الورى ... مثلُ الملوكِ وجندُهُ أمراءُ
ملكٌ تزيَّنَتِ الممالكُ باسمهِ ... وتجمَّلتْ بمديحهِ الفصحاءُ
وترفَّعَتْ لعلاهُ خيرُ مدارسٍ ... حلَّتْ بها العلماءُ والفضلاءُ
يبقى كما يبقى الزمانُ وملْكُهُ ... باقٍ لهُ ولحاسديهِ فَنَاءُ
دامتْ لهُ الدنيا ودامَ مخلَّدا ... ما أقبلَ الإصباحُ والإمساءُ

وبعدما أنشد الشعراء قصائدهم أفيضت الخلع، وكان يوماً مشهوداً(٩٥).

وفضلاً عن ذلك شملت إصلاحات الظاهر بيبرس السلطة القضائية، فجعل عام ٦٦٣هـ في مصر قاضياً لكل مذهب من المذاهب الإسلامية الأربعة الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي، وكان لا يقضي بها قبل ذلك سوى قاض شافعي فقط، وسر الناس بذلك، وعبر أحد الشعراء عن ذلك بقوله(٩٦):

لقد سرَّنا أن القضاةَ ثلاثةٌ ... وأنكَ تاجَ الدينِ(٩٧) للقومِ رابعُ
فلا عجبٌ أنْ وسَّعَ اللهُ في الهدى ... مذاهبَنَا بالعلمِ فالشرعُ واسعُ
تفرَّقتِ الآراءُ والدينُ واحدٌ ... وكلٌّ إلى رأيٍ منَ الحقِ راجعُ
فهذا اختلافٌ صارَ للناسِ رحمةً ... كما اختلفتْ في الراحتينِ الأصابعُ
فكمْ رُخَصٍ أبدَوْا لنا وعزائمٍ ... هُدِينَا بها فهْي النجومُ الطوالعُ
بهمْ بُنِيَةُ الإسلامِ صحَّتْ وكيفَ لا ... تصحُّ وهُمْ أركانُها والطبائعُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومثلما رافق الشعر الظاهر بيبرس في حياته الحافلة بالأعمال الجليلة،رافقه أيضاً إلى مثواه الأخير، ورثاه بعد وفاته في دمشق في ٢٨ من المحرم عام ٦٧٦هـ(٩٨)، وإن اختلف مستوى الرفقة. فهذا محيي الدين بن عبد الظاهر قد وصف فداحة الخطب الذي لا يستطيع القلب أن يتحمله، ولا الصبر الجميل أن يحيط به، لأنه مصيبة تنوء بحملها الجبال، فقال(٩٩):

ما مثلَ هذا الرزءِ قلبٌ يحملُ كلا ولا صبرٌ جميلٌ يجملُ
اللهُ أكبرُ إنَّها لمصيبةٌ منها الرواسي خيفةً تتقلقلُ

ثم تحدث عن مآثره التي كانت بها تطيب الدنيا، وعن مننه التي كانت تطوق أعناق الجميع، وعن آرائه الصائبة وعزائمه القوية(١٠٠) :

لهفي على الملكِ الذي كانت به الـ ـدنيا تطيبُ فكلُّ قفرٍ منزلُ
الظاهرُ السلطانُ مَنْ كانَتْ لهُ مِنَنٌ على كلِّ الورى وَتطَوُّلُ
لهفي على آرائِهِ تلكَ التي مثلُ السهامِ إلى المصالحِ تُرْسَلُ
لهفي على تلكَ العزائمِ كيف قدْ غفلَتْ وكانت قبل ذا لا تغفلُ

وبعدذلك انتقل إلى تصوير أثر موته على الرماح التي كانت ترافقه في جهاده(١٠١):

ما لِلرماحِ تخوَّلَتْها رعدةٌ لكنَّها إذْ ليسَ تَعْقِلُ تعقلُ

كما تحدث أيضاً عن موته، وكيف كان سهماً أصاب مقاتل القلوب جميعها، ولم ير له مثيل من قبل(١٠٢):

سهمٌ أصابَ وما رُئي مِنْ قبلِهِ سهمٌ لهُ في كلِّ قلبٍ مَقْتَلُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ودفن الظاهر بيبرس في المدرسة الظاهرية بدمشق، ولما تزل إلى الآن قائمة معروفة باسم المكتبة الظاهرية الشهيرة، وكذلك لما يزل قبره معروفاً فيها واضح المعالم(١٠٣). وكانت هذه المدرسة من قبل داراً لرجل اسمه (العقيقي)، فاشتراها ابن الظاهر بيبرس الملك السعيد، وأمر أن تغير معالمها، وتبنى مدرسة للشافعية والحنفية(١٠٤). وقد ذكر ذلك محيي الدين بن عبد الظاهر أيضاً في قوله(١٠٥):

صاحِ هذا ضريحُهُ بينَ جفنيَّ م فزوروا مِنْ كلِّ فجٍ عميقِ
كيفَ لا وهْوَ منْ عقيقِ جفوني دفنوهُ منها بدارِ العقيقي

ولا شك في أن ما قيل في رثائه، أو ما وصلنا منه أقلُّ من القليل، ولا يتناسب مع كونه خير ملوك الترك على الإطلاق(١٠٦) . إذ لم يصل إلينا من رثائِه سوى ما قاله محيي الدين بن عبد الظاهر، الأمر الذي يدل على إخلاص ابن عبد الظاهر ووفائه، ولكنه في الوقت نفسه يدعونا إلى أن نتساءل: ألم يرثه أحد من الشعراء غير ابن عبد الظاهر؟ وإن كان بعضهم قد رثاه فأين شعره؟ ولعلي أستطيع أن أعلل هذا بضياع هذا الرثاء مع غيره من الشعر الذي ضاع أو إلى خوف الناس من كبار أمراء المماليك الذين كانوا يطمعون بالسلطنة من جانب آخر، وعندما يصلون إليها فلن يرحموا أتباع الظاهر بيبرس والمخلصين له، أو على الأقل سيحرمونهم من وظائفهم أو عطاياهم. وربما يعترض على هذا الزعم معترض قائلاً: إن ابنه الملك السعيد محمد قد تولى السلطنة بعده. فأقول: هذا صحيح، ولكنه عندما تولى السلطنة كان صغيراً في الثامنة عشرة من عمره، وكثير من الناس ومن الشعراء كانوا يرجحون أن أمراء أبيه لن يمكنوه من الاستمرار في السلطنة، إن لم أقل إنهم كانوا متأكدين من ذلك، لما عرف من طيشه، ولما عرف من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

طمعهم بالسلطنة، ولقد تحقق ذلك، إذ أجبروه على التنازل عن السلطنة بعد مدة وجيزة لأخيه الصغير سلامش الذي سرعان ما عزله أتابك العسكر قلاوون بعد أشهر قليلة من سلطنته(١٠٧).

والحقيقة أن هذا الشعر الذي وصل إلينا في الملك الظاهر بيبرس لم يوفه حقه، بل ولا جزءاً صغيراً من هذا الحق ولقد صدق القائل فيه بعد موته(١٠٨):

تاريخُهُ في الملوكِ أضحى ... يحيِّرُ العربَ والأعاجمْ
فاكتبْهُ بالتبْرِ لا بِحِبْرٍ ... واعجبْ لأخبارِهِ العظائمْ
اختارَهُ اللهُ مِنْ إمامٍ ... لقمعِ أهلِ الفسادِ صارمْ
قدْ أظهرَ العدلَ في الرعايا ... وأبطلَ الجَوْرَ والمظالمْ

ولقد كان جديراً بشاعر كالمتنبي أو أبي تمام أو غيرهما من الفحول يستطيع أن يوفيه حقه. ولكن لكل عصر شعراءه الذين يعيشون فيه، ويتأثرون بما فيه، ويدورون في فلكه، ويسمهم بميسمه. ومهما حلقوا فإن لقدرتهم على الطيران حدوداً لا يستطيعون تجاوزها من جهة، وإن لهم جمهورَهم وقيَمَه الفنية التي تفرض عليهم مسارهم وكيفية إبداعهم من جهة أخرى. وذلك لأنهم يقولون أشعارهم لجمهور عصرهم الذي لن يستحسنه إلا إذا كان موافقاً لما يريد ويستحسن من قيم فنية ومثل أدبية.

ومع ذلك كله فإن في هذا الشعر الذي تحدث عن الظاهر بيبرس خيراً كثيراً، ولا سيما إذا نظرنا إليه من خلال القيم الفنية والمثل الأدبية، التي كانت سائدة في ذلك العصر. ولقد وفق إلى حد كبير في أن يرسم صورة مشرقة واضحة ـ وإن كانت غير كاملة ـ لجوانب عدة من جوانب شخصية بطل شامخ من أبطال أمتنا، استطاع أن يغير وجه التاريخ، وأن يرد التتار على أدبارهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خاسرين، وأن يسهم إسهاماً حاسماً في إسدال الستار على الفصل الأخير من فصول الحروب الصليبية الوحشية، وأن يمد في عمر الخلافة العباسية العربية مايزيد على قرنين ونصف من الزمن، وأن يقوم بأعمال جليلة في جميع المجالات السياسية والعسكرية والإدارية والاقتصادية والثقافية وغير ذلك من المجالات.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الهوامش

(١) لقب نفسه أولاً بالملك القاهر، فقيل له: إن هذا اللقب لا يفلح من يلقب به ، فعدل عنه حينئذ إلى الملك الظاهر. (البداية والنهاية ٧/ ٢٣٦).

(٢) بيبرس، بكسر الباء الأولى، وسكون الياء، ثم فتح الباء الثانية، وسكون الراء والسين. ومعناه باللغة التركية أمير فهد (النجوم الزاهرة ٧/ ٩٤). وضبط الاسم بفتح الباء الأولى في دائرة المعارف الإسلامية ٨/ ٤٨٦، وفي كتاب الأعلام للزركلي من غير إشارة إلى مصدر. لذلك أرجح الضبط الأول الوارد في النجوم الزاهرة.

(٣) نسبة إلى الأمير الذي اشتراه، وهو علاء الدين أيدكين البندقدار (النجوم الزاهرة ٧/ ٩٤). والبندقدار: حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير (العصر المماليكي في مصر والشام ٤٢٠).

(٤) نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب السلطان الأيوبي الذي صادره من أيدكين البندقدار (سمط النجوم العوالي ٤/ ١٨).

(٥) النجوم الزاهرة ٧/ ٩٤.

(٦) العبر في أخبار من غبر ٥/ ٣٠٨ والنجوم الزاهرة ٧/ ٩٤ ودائرة المعارف الإسلامية ٨/ ٤٨٦.

(٧) النجوم الزاهرة ٧/ ٩٥.

(٨) بكسر القاف وسكون الباء، وضبط القلقشندي القاف بالفتح (النجوم الزاهرة ٧/ ٩٤).

(٩) النجوم الزاهرة ٧/ ٩٥ ـ ٩٦.

(١٠) نسبة إلى بحر النيل، لأن السلطان الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون لهم مستقراً (العصر المماليكي ٥).

(١١) دائرة المعارف الإسلامية ٨/ ٤٨٦.

(١٢) سمط النّجوم العوالي ٤/ ١٨.

(١٣) دائرة المعارف الإسلامية ٨/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧.

(١٤) النجوم الزاهرة ٧/ ١٠١.

(١٥) البداية والنهاية ٧/ ٢٣٤.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(١٦) دولة الظاهر بيبرس ٤٠، دائرة المعارف الإسلامية ٨/ ٤٨٧.

(١٧) تتمة المختصر ٢/ ٢٩٧.

(١٨) دولة الظاهر بيبرس في مصر ٤١.

(١٩) العصر المماليكي ٣٧.

(٢٠) دولة الظاهر بيبرس في مصر ٤١.

(٢١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٠١- ١٠٢.

(٢٢) العصر المماليكي ٣٩.

(٢٣) النجوم الزاهرة ٧/ ١٠٢.

(٢٤) بدائع الزهور ١/ ٣٠٨.

(٢٥) النجوم الزاهرة ٧/ ١٧٧.

(٢٦) العبر في خبر من غبر ٥/ ٣٠٨.

(٢٧) تاريخ المماليك البحرية ٤٨.

(٢٨) لا أجد مجالاً للحديث عنها في هذا البحث، ويكفي أن ننظر إلى ثبت المصادر والمراجع التابع لهذا البحث على سبيل المثال.

(٢٩) انظر على سبيل المثال النجوم الزاهرة ٧/ ١٩٠، ودائرة المعارف الإسلامية ٨/ ٤٨٧ وما بعدها، وكتاب دولة الملك الظاهر بيبرس في مصر.

(٣٠) شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد الحلبي الدمشقي الحنبلي (٦٤٤- ٧٢٥هـ) ولي الإنشاء في دمشق، ثم في مصر، ثم صار كاتب السر في دمشق إلى أن توفي فيها. وكان شيخ صناعة الإنشاء في عصره وإضافة إلى ذلك كان شاعراً. (فوات الوفيات ٤/ ٨٢).

(٣١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٩.

(٣٢) البداية والنهاية ٧/ ٢٧٩.

(٣٣) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٩- ١٦٠.

(٣٤) فوات الوفيات ١/ ٢٤٠.

(٣٥) النجوم الزاهرة ٧/ ١٦٠.

(٣٦) فوات الوفيات ١/ ٢٣٩.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣٧) فوات الوفيات ١/ ٢٣٨.

(٣٨) قال الله تعالى في سورة الكهف ٩٧: ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾.

(٣٩) ناصر الدين الحسن بن شاور بن طرخان بن الحسن المعروف بابن النقيب النفيسي (... – ٦٨٧ هـ) شاعر قاهري من شعراء مذهب التورية (فوات الوفيات ١/ ٣٢٤).

(٤٠) البداية والنهاية ٧/ ٢٧٩ والنجوم الزاهرة ٧/ ١٦٠.

(٤١) بدر الدين يوسف بن سيف الدولة بن زماخ الحمداني، مهمندار العرب، (... بعد ٦٨٠ هـ) شيخ متجند، له شعر جيد. (فوات الوفيات ٤/ ٣٤٩).

(٤٢) فوات الوفيات ٤/ ٣٤٩.

(٤٣) فوات الوفيات ٤/ ٣٥٠.

(٤٤) المصدر نفسه.

(٤٥) فوات الوفيات ٤/ ٣٥١.

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) المصدر نفسه.

(٤٩) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٩.

(٥٠) استخرجته بوساطة الحاسوب.

(٥١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٦٨.

(٥٢) المصدر نفسه.

(٥٣) ذيل مرآة الزمان ٣/ ١٧٨.

(٥٤) تأثر الشاعر هنا بمطلع قصيدة أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي، وهو:

كذا فليجِل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

(ديوان أبي تمام ٦٧٠).

(٥٥) وتأثر في قصيدته هذه بسيفية المتنبي التي مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

(ديوان المتنبي بشرح العكبري ٣/ ٣٧٨).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٥٦) ذيل مرآة الزمان ٣/ ١٧٨.

(٥٧) النجوم الزاهرة ٧/ ١٧٠.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) المصدر نفسه.

(٦٠) ذيل مرآة الزمان ٣/ ١٧٩.

(٦١) المصدر نفسه.

(٦٢) النجوم الزاهرة ٧/ ١٧١.

(٦٣) النجوم الزاهرة ٧/ ١٧٠.

(٦٤) ذيل مرآة الزمان ٣/ ١٨٠.

(٦٥) المصدر نفسه.

(٦٦) بدائع الزهور ١/ ٣١٤.

(٦٧) المصدر نفسه.

(٦٨) انظر دائرة المعارف ٨/ ٤٨٩.

(٦٩) بدائع الزهور ١/ ٣٣٢.

(٧٠) السلوك ١/ ٦٣٨.

(٧١) المختصر في أخبار البشر ٧/ ١٠.

(٧٢) فوات الوفيات ١/ ٤٠٦.

(٧٣) السلوك ١/ ٥٣١.

(٧٤) بدائع الزهور ١/ ٣١١.

(٧٥) انظر السلوك ١/ ٥٥٣.

(٧٦) شمس الدين محمد بن دانيال الموصلي الحكيم (٦٤٧- ٧١٠هـ) كان فاضلاً أديباً ذا نظم حلو ونثر عذب ونوادر عجيبة، له كتاب طيف الخيال، وكان له دكان كحل في القاهرة. (فوات الوفيات ٣/ ٣٣٠).

(٧٧) بدائع الزهور ١/ ٣٤٣.

(٧٨) أبو الحسين الجزار، يحيى بن عبد العظيم (٦٠٣ - ٦٧٩ هـ) شاعر مصري مشهور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من شعراء مذهب التورية، وكان زميلاً للسراج الوراق، وأصله جزار، والجزارة مهنة أهله، ولكنه تأدب ونجح في ذلك. (فوات الوفيات ٤/ ٢٧٨).

(٧٩) السلوك ١/ ٥٥٤.

(٨٠) فوات الوفيات ١/ ٢٤٦.

(٨١) مرت ترجمته من قبل [برقم (٣٩)، وانظر تعليق صاحب الاعلام في هامش ترجمته ٢ : ١٩٣ ، ٨: ٤٧ / المجلة] .

(٨٢) فوات الوفيات ١/ ٢٤٥.

(٨٣) هو القاضي ناصر الدين أحمد بن محمد قاضي الإسكندرية (٦٢٠ - ٦٨٣ هـ) كان عالماً فاضلاً أديباً خطيباً شاعراً. قال عنه العز بن عبد السلام: ديار مصر تفتخر برجلين في طرفيها. ابن المنير بالإسكندرية، وابن دقيق العيد بقوص. (فوات الوفيات ١/ ١٤٩).

(٨٤) فوات الوفيات ١/ ٢٤٥.

(٨٥) انظر بدائع الزهور ١/ ٣٢٦ وما بعدها .

(٨٦) بدائع الزهور ١/ ٣٢٧.

(٨٧) المصدر نفسه.

(٨٨) بدائع الزهور ١/ ٣٢٨.

(٨٩) المصدر نفسه.

(٩٠) فوات الوفيات ١/ ٢٤٦.

(٩١) خطط المقريزي ٢/ ٣٧٩.

(٩٢) السلوك ١/ ٥٠٤.

(٩٣) خطط المقريزي ٢/ ٣٧٩.

(٩٤) المصدر نفسه.

(٩٥) خطط المقريزي ٢/ ٣٧٩.

(٩٦) بدائع الزهور ١/ ٣٢١ - ٣٢٢.

(٩٧) أي تاج الدين بن بنت الأعز قاضي الشافعية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(٩٨) النجوم الزاهرة ٧/ ١٧٥.

(٩٩) بدائع الزهور ١/ ٣٣٩.

(١٠٠) المصدر نفسه.

(١٠١) المصدر نفسه.

(١٠٢) المصدر نفسه.

(١٠٣) زرته ورأيته بنفسي كما زرت المدرسة الظاهرية أو المكتبة الظاهرية كما تسمى اليوم.

(١٠٤) النجوم الزاهرة ٧/ ١٧٦.

(١٠٥) فوات الوفيات ١/ ٢٤١.

(١٠٦) بدائع الزهور ١/ ٣٤٢.

(١٠٧) تتمة المختصر ٢/ ٣٢٤.

(١٠٨) بدائع الزهور ١/ ٣٤٢.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المصادر والمراجع

– ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ت: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.

– ابن تغري بردي: يوسف الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦٣م.

– ابن شاكر: محمد الكتبي، فوات الوفيات ت: ، إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٣م.

– ابن كثير: أبو الفداء الحافظ الدمشقي، البداية والنهاية، ت: أبو ملحم وزملائه، دار الكتب العلمية– بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.

– ابن الوردي: عمر بن المظفر، تتمة المختصر في أخبار البشر، ت: أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٠م.

– أبو تمام: شرح ديوان أبي تمام، إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١م.

– أبو الفداء: إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، دار الكاتب اللبناني، بيروت ١٩٦٠م.

– حسن: علي إبراهيم، تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧م.

– حمزة: عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي ١٩٦٨م.

– الذهبي: محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، ت: صلاح الدين المنجد، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت ١٩٦٦م.

– الزركلي: خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م.

– سرور: محمد جمال الدين، دولة الظاهر بيبرس في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٠م.

– عاشور: سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٦م.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

– العصامي: عبد الملك بن حسين المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٨٠هـ.

– المتنبي: أبو الطيب أحمد، بن الحسين، ديوان المتنبي بشرح العكبري، ضبطه وصححه السقا والأبياري وشلبي، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨م.

– المقريزي: أحمد بن علي، خطط المقريزي (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، طبعة مصورة عن طبعة دار الطباعة المصرية بالقاهرة ١٢٧٠هـ مكتبة المثنى ـ بغداد.

– السلوك لمعرفة دول الملوك: صححه وضبط حواشيه محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٧م.

– اليونيني: قطب الدين موسى بن محمد، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ١٩٦٠م.

– دائرة المعارف الإسلامية: إعداد وتحرير خورشيد والشنتناوي ويونس، القاهرة طبعة كتاب الشعب.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net